تاسيتوس المؤرخ الرومانى

ورأى نابليون فيه

كان نابليون بونابرت فى بعض المواقف يرى من موجبات السياسة ودواعى الحذق والكياسة أن يلقى رجال الأدب والشعراء والفلاسفة والعلماء ويجاذبهم الحديث ويخوض معهم غمار المشكلات الفكرية والبحوث النظرية . ويروى تاليران فى مذكراته أن نابليون كان يعد العدة لأمثال هذه المجاذبات والمقابسات ، ويعنى عناية خاصة بأن ينتصر فى حومة المناقشة ، ولذا كان يتسلح بالمعلومات الكافية فى الموضوع الذى سيتناوله الحديث ويعبئ الحجج والبراهين ويعمد إلى طريقة الهجوم المفاجئ التى ألفها فى ميادين الوغى ، وبهذه الطريقة كان كثيراً ما يوفق فى التغلب على محادثيه ، ويقتحم حصون المعارضة ، ويظهر أمام الحاضرين مظهر العالم المتفوق والمفكر النافذ النظر ! وكان لا يرتبك ولا يتخاذل منطقه إذا ثبت له محدثه ورماه بحجة تنقض رأيه من أساسه ؛ لأنه كان يستطيع فى يسر وسهولة أن يجد الأسباب لقطع طريق المحادثة أو تحويلها إلى الناحية التى يريدها ، وكانت ثقته بنفسه فى هذا المجال عظيمة لا حدود لها ، ويؤكد لنا تاليران أنه « ما كان ليهز هذه الثقة حضور مونتسكييه أو فولتير » .

واتفق فى سنة ١٨٠٦ أن هزم نابليون البروسيين فى معركة ينا الشهيرة ودخل برلين دخول الظافر المنتصر ، ولقى المؤرخ الألمانى الأستاذ جوان فون ميلر ، وكان ميلر من غلاة المتعصبين للمؤرخ الرومانى تاسيتوس ، وكان يحتذى أسلوبه ويسير على طريقته فى تصوير الحوادث والرجال وتبكيتهم والنعى عليهم . ودار الحديث على تاسيتوس ، ولم يترفق نابليون بالأستاذ المؤرخ ، وهاجم تاسيتوس هجوماً عنيفاً ، وتخاذل المؤرخ أمام قوة نابليون الخطابية ، وزكانته التاريخية ، ولحاته الكاشفة وهجماته المباغتة ، فأعطاه القادة ، وسلم له على طول الخط ، وأخذ الرجل بنابليون ، وسحر بجلاله وعظمته ، وترك

فى وقدة حماسته خدمة الحكومة البروسية ودخل فى خدمة الحكومة الفرنسية وغالى بعد ذلك فى الاعجاب بنابليون . فقال مرة فى إحدى خطبه والامبراطور فى أوج قوته : «إن نابليون هو الرجل الذى تلتزم الدنيا الصمت إزاءه لأن الله قد وضع زمام الدنيافى يديه . » وقد عقب علىذلك أحد الأمراء الأوربيين بقوله : « لو أن نابليون أنصت ولو أنه أجاب لكان أعظم رجل عاش فى الدنيا . »

ولعل هذا الانتصار فى محاربة تاسيتوس كان أول انتصار أغر أحرزه الامبراطور فى ميدان التاريخ ونقد المؤرخين .

وفى سبتمبر سنة ١٨٠٨ اجتمع الامبراطور نابليون بالقيصر الأسكندر عاهل الروس فى مدينة إرفرت الصغيرة القريبة من ويمار فى الأراضى الألمانية . وفى هذه المناسبة استقبل الامبراطور دوق ويمار وجيتى وويلاند النقادة الألمانى الذائع الصيت ورحب بهم . وخاض مع جيتى وويلاند فى أحاديث الأدب جريا على عادته فى محاولة اكتساب إعجاب المفكرين وتقديرهم

وفى أثناء إحدى حفلات الرقص فى ويمار دارت مناقشة أو وقعت مناوشة بينه وبين النقادة ويلاند ، وكان سوضوعها المؤرخ تاسيتوس ، ولم يلق نابليون فى هذه المرة انتصاراً هيناً ليناً كانتصاره على المؤرخ سيللر ؛ فقد ثبت له ويلاند ، وأخذ عليه المسالك ، وضيق الخناق ، وكاد يهزمه لولا ما أوتى الامبراطور من بديهة حاضرة وحيلة واسعة .

وكان سبب احتدام المناقشة ونشوب الجدل بين الامبراطور وويلاند قول نابليون إن المأساة مدرسة للرجال المستنيرين ، وإنها من بعض الوجوه تفوق التاريخ . وتجمع فى اللحظة التى ألقى فيها نابليون بهذا التصريح جماعة من المفكرين فى أحد أركان الحجرة ، واسترسل الامبراطور يقول مخاطباً ويلاند : « أؤكد لك أن المؤرخ تاسيتوس الذى تكثرون من الاستشهاد به لم يعلمنى قط شيئاً ، وهل تعرف أعظم منه تنقصاً للرجال وتنكيتاً عليهم وهو مع ذلك ظالم لهم ؟ وهو يعزو أبسط الأعمال إلى الدوافع الاجرامية ، هو يصور أباطرة الرومان جميعهم أشراراً سفلة لكى يكسب الاعجاب للعبقرية التى هتكت سترهم . وسنوياته أولى بأن تسمى ملخصاً لسجلات الأباطرة من أن تسمى تاريخاً للامبراطورية ، فهى لا تخبرنا بشئ سوى الاتهامات والمتهمين وأخبار الذين فتحوا شرايينهم فى الحمام ، وهذا الذى لا ينى يتحدث عن الجواسيس هو نفسا

أعظم الجواسيس . وأى أسلوب ؟ وأى غموض لا يلمع فى ظلماته ضوء ؟ ولست من كبار المتمكنين من اللاتينية ، لكن غموض تاسيتوس واضح فى عشر تراجم أو اثنتى عشرة ترجمة قرأتها فى الفرنسية أو الايطالية ، ومن ثم استنبطت أن الغموض أصيل فيه ، وأنه ليس مقصوراً على أسلوبه ، وإنما يشمل كذلك تفكيره . ولقد سمعت ثناء عليه من أجل الخوف الذى يوقعه فى نفوس الطغاة ، فهو يجعلهم يهابون الشعب ، وهذا نكبة على الشعب نفسه ، ألست على حق يا مسيو ويلاند؟ »

وهنا توقف نابليون عن الحديث معتذراً بعض الاعتذار ، واسترعى نظر الجماعة إلى براعة القيصر الاسكندر فى الرقص ورشاقة حركاته ، ولكن جماعة الحاضرين كانت أكثر اهتماماً بمشاهدة المبارزة الفكرية منها برؤية الرقص البديع والحركات الرشيقة .

وشجعت صراحة نابليون ويلاند على قبول التحدى ، فبدأ يقول : إن تاسيتوس لم يعمد إلى فضيحة الأباطرة والتنديد بهم لرعيتهم السافلة الوضيعة فحسب ، وإنما كشف كذلك مساوئهم للانسانية جميعها فى مختلف الأجيال . وختم حديثه بقوله : إنه يأمل أن يسيطر العقل على الناس بدلا من العاطفة والهوى.

فأجاب الامبراطور : « هذا ما يقوله فلاسفتنا جميعهم ، وبالرغم من أنى أبحث عن قوة العقل هذه فانى لم أجدها فى أى مكان . »

فتجاسر ويلاند على أن يقول : « إن من علامات نموها الاهتمام المتزايد بتاسيتوس أقدر مؤرخى العصور القديمة على التلوين كما سماه راسين . ولقد كانت الامبراطورية فى عصره يحكمها هولات قباح وقد سلقهم تاسيتوس ببيانه ونال منهم ، وقد كان مضطرا إلى أن يحصر نفسه فى سجلات روما على حين أن ليفيوس عنى بأمر الجيوش ، وفى كتابة تاسيتوس تنعكس صورة ذلك العصر البائس الشقى الذى وقف فيه الأمراء والشعب وجها لوجه ، ولكنه حينما يصف العهود التى تحالفت فيها الامبراطورية مع الحرية فانه يعتبر ذلك أنظم الكشوف التى اهتدى إليها الانسان . »

وهنا طن دوى الاستحسان ، واعترف نابليون بأنه تلقاء خصم عنيد ، وبأن موقفه محفوف بالأخطار ، ولكن براعته المعهودة لم تخذله فى هذا الموقف ، والتف حول جناح خصمه قائلا : « هل راسلت مصادفة الهرميللر الذى لقيته فى بوتزدام ؟ إنى لا أسلم بأنى هزمت . »

فارتبك ويلاند ، واعترف بأن الأمر كما قدر نابليون ، وأدهش ذلك الحاضرين وأمتعهم ، وشجع ذلك نابليون على استئناف المناقشة مؤكداً « أن تاسيتوس لم يكشف عن الأسباب الداخلية المستسرة للحوادث ، وأنه يترك علاقاتها الخفية الغامضة غير واضحة » ، وأوجز عرضه بقوله : إنه يجب الحكم على الحكومات حسب البيئة ، وأنهى المناقشة فى هذا الموضوع وقد أبلى فيها بلاء حسناً لخصمه الجرى وحول مجرى الحديث إلى نواح أخرى . وكأن نابليون يحترم الرجل الذى يعرف ما يقول ويحسن التفكير ، فأهدى وسام الشرف الفرنسى لجيتى وويلاند فى ١٤ أكتوبر قبل أن يبرح إرفرت هو والقيصر الاسكندر .

وقد ظل نابليون إلى آخر أيامه وهو يكره تاسيتوس ولم يغير فيه رأيه . ففى جزيرة سنت هيلانة عاد فأكد رأيه فى أن تاسيتوس لم يفسر الدوافع التى تؤثر فى أعمال الرجال ، وأن القصص التى رواها عن تيبريوس سخيفة ، ولماذا يحرق نيرون روما وهو الذى كان يحبها حبا جما ؟ لم يقدم تاسيتوس سبباً يدعو إلى ذلك . وسخر نابليون من فكرة عزو كراهته لتاسيتوس إلى معارضة تاسيتوس للطغيان .

وما من شك فى أن لتشديد تاسيتوس النكير على الطغاة والمستبدين أثراً فى تحامل نابليون عليه . ففى الفصل الخامس بعد الثلاثين من الكتاب الرابع من سنوياته بعد أن روى دفاع كريمتيوس كورديوس عن نفسه حينما وجهت إليه تهمة مدح كاسيوس وبروتاس فى سنوياته قال : « إن العبقرية تقوى وتنمو بالاضطهاد والضغط ، واضطهد الكاتب تزد قيمة عمله . والطغاة الأجانب وجميع من اتخذ سياستهم الوحشية قد جربوا هذه الحقيقة ، وقد سجلوا على أنفسهم العار بمقاومتهم الموهوبين وذوى العقول وأعطوا الكتاب جواز المرور إلى الخلود . » ويقول كذلك فى عرض كلامه عن هذا الموضوع : « السباب الذى يهمل أمره سرعان ما يموت ويخمد . ولكن إذا أظهرت أن السباب قد جرحك أعطيته مظهر الصدق . »

على أن الحق يقتضينا أن نقرر أن تحامل نابليون على تاسيتوس مهما كانت أسبابه كان له تأثير حسن فى الدراسات التاريخية ؛ فقد أثار الشكوك فى صدق الصورة التى رسمها تاستوس لتيبريوس وغيره من ساسة عصره وأعيان زمانه . ويرى كثير من الباحثين الآن أن صوره الحزينة الشديدة النكر مبالغ فيها .

وليس أدل على زكانة نابليون من أنه كان فى طليعة الذين لحظوا ذلك وأشاروا إليه ونبهوا عليه .

ويأخذ عليه بعض نقاده المحدثين ضيق أفقه وشدة تعصبه وتحيزه ، وأنه لكى يزيد التأثير ويبالغ فى وصف سوء الأحوال واكفهرار الجو وليكثر من كيل الشتائم القاسية والمثالب الجارحة ، كان يضحى بالحق ؛ وكان يزيده تورطاً فى ذلك أنه كان لا يعرف بعض من كتب عنهم إلا معرفة ناقصة على حين كان يكرههم كراهة شديدة . ومتى اجتمعت المعرفة الناقصة بالكراهة الشديدة ضل الرأى واضطرب ميزان الحكم واختل التقدير . وربما كان تاسيتوس لايتعمد ذلك تعمداً ، ولا يقصد إليه قصداً ، وإنما كان عقله الملىء بالاستنكار والتحزب لا يمكنه من أن ينظر إلى الحوادث والرجال نظرة بريئة نزيهة خالية من شوائب الهوى وتلاوين العاطفة ، يضاف إلى ذلك حرصه على تضمين أحكامه إلى الناس جملاً موجزة جامعة يسهل انطباعها فى الذاكرة وبقاؤها على الأيام . ومثل هذه الجمل القصيرة الملمومة قد تشرق منها أنوار البلاغة ، ولكنها كثيراً ما تجور على الحقائق التاريخية ؛ لأن تلك الحقائق فى بعض الأحيان أو فى كثير من الأحيان تتأبى على البلاغة وتستعصى على الديباجة المشرقة والكلمات الوثابة النابضة الجامعة .

على أن الكثير من تاريخ الرومان وغيرهم من الأمم يقوم على وثائق ليست فوق منال الشبهات ، وقد اشترك الاهمال والاغفال والتحيز والهوى والكذب الصريح والتلفيق والتزوير والوهم والخيال فى جمع هذه المادة الضخمة ، والكثير مما يظن أنه تاريخ هو فى الواقع من الأساطير الموضوعة والأكاذيب الملفقة والأباطيل المنمقة .

وقد صور تاسيتوس تيبريوس مستبدا فظًّا وطاغية جباراً ، واستطاع بأسلوبه الفذ وتصويره الرائع أن يفرض هذه الصورة التى رسمها خياله القوى المشبوب على الأجيال المتعاقبة . وقد أثارت بحوث العلامة سيفرز وفريتاج وجيروم الشك فى تلك الصورة وأيدت ما أدركه نابليون بالبداهة الصادقة وإلهام العبقرية . ويعلل (١) توماس سبنسرجروم ذلك بأن ثقافة تاسيتوس كانت قائمة على البلاغة

---

(١) وقد وفى الاستاذ جيروم هذه الناحية من البحث فى كتابه القيم *Aspects of the Study of Roman History.*

وموقوفة عليها ، وأنه ظل طوال حياته ولوعاً بالجمل الرنانة ، وبأن الكذب كان من صفات الرومان التى لا يرون فيها غضاضة ولا كبير عيب ، ويضاف إلى ذلك عدم تعويلهم على مبادئ علمية فى تسجيل التاريخ ، وأنهم كانوا لا يفطنون إلى ما فى سردهم للأخبار من التناقضات الصارخة ، وكانوا لا يتورعون عن المغالطات والسفسطة والتلاعب بالألفاظ ، وكانوا يعتبرون الكذب فناً جميلا ، وقد ألحقوا التاريخ بفنون البلاغة واتخذوه وسيلة لتأكيد الحقائق الأخلاقية . وكان التاريخ عندهم يناظر الشعر إلا أنه طليق من قيود الأوزان والقوافى ، وكما يجوز فى الشعر الكذب فكذلك يجوز فى التاريخ الكذب .

وقد لا يكون من حقنا أن نسرف فى لوم تاسيتوس على أخذه هذا النهج ، فالكثيرون من المؤرخين المحدثين ليست لهم براعة تاسيتوس التصويرية ولا بلاغته المتألقة الرائعة ، ولكنهم مع ذلك لم يتخلصوا من العيوب التى أخذت عليه . وقد أثبتت الطبيعة الانسانية فى أوقات كثيرة أنها أقوى من تحفظ المؤرخين واحتياطهم وتحريهم الموضوعية وجريهم وراء الحق التاريخى . وقد يبدءون وفى نيتهم التجرد التام والتزام النزاهة ، ولكن بعد قليل يستميلهم سحر الموضوع ويخلب لبهم صوت يرسله البطل من وراء القبور أو إعجاب يوحيه نظام قديم قد أصبح بالياً متهدماً ولكنه مع ذلك يملك القوة على إثارة الاعجاب وإشعال الحماسة . وقد تحملهم الحماسة على أجنحتها فيمعنون فى البلاغة . وقد تنسى البلاغة وعلو البيان إلى الحق الصراح . والظاهر أن أكثر المؤرخين يشعرون بأن المؤرخ الذى يكتفى بالحق والحق وحده يشيع فى كتابته الجفاف والفتور والاملال .

والمؤرخ الشديد التنطس والتدقيق قد لا يظفر بقراء ، ولا يجد شيئاً يحلو به سوى الحق الكالح والوقائع البشعة ! وقد حمل ذلك بعض المؤرخين الذين لا يشك فى أمانتهم على ألا يخجلوا من القول بأن الميل إلى حد ما لازم فى كتابة التاريخ . وقد كان الأستاذ بيورى المؤرخ الانجليزى المعروف يعتقد أن المنهج التاريخى فى حدود خاصة يجب أن يكون علميا ، ومع ذلك فانه مما يؤثر عنه قوله : « لا أظن أن التحرر من النزعة والهوى من الأشياء الممكنة ، ولا أظن أنها من الأشياء المرغوب فيها ، والذى يبرأ فى كتابته كل البراءة من الهوى والتحيز يقدم لنا عملا مملا لا لون له . » وأعظم كتاب التاريخ فى

القرن التاسع عشر لم يبرءوا من الهوى والميل والتأثر بالنزعات السياسية أو الدينية أو القومية وما شابه ذلك من النزعات والاتجاهات والميول والأهواء. ولا يتيسر للمؤرخ كتابة التاريخ إذا سحق شخصيته سحقاً تاما مهما تحرى الحق وأطال التدقيق والتمحيص، ولكن الميل نافع إلى حد ما، ولا يلزم الاسراف فيه والتطوح فى متاهته؛ لأن الاسراف فى الهوى يجعل المؤرخ يشوه الحقائق وينتقص بعضها ويتزيد فى البعض الآخر ويظهرها جميعها فى ضوء خادع مضلل. ومن كلمات كولردج الجامعة فى نقد المؤرخ الكبير جيبون قوله: «أسلوبه من الأساليب التى لا يتيسر فيها ذكر الحق.»

والمشكل الذى يواجهنا هنا هو أن الاكتفاء بتسجيل الحوادث وسرد الأخبار لا يعطى لنا سوى نظرة جزئية للأشياء وصورة شاحبة للماضى لا نستطيع الاعتماد عليها ولا الاكتفاء بها. والمؤرخ الذى يجعل الماضى حياً لا بد أن تكون له قدرة أخرى فوق قدرته على تمحيص الوثائق ومراجعة الأسانيد وغربلة الأخبار والروايات؛ وهذه القدرة هى الخيال الملون الوثاب والاحساس المرهف الحاد، ولكن إذا كان المؤلف فناناً فهل يلزم أن يكون متحزباً وله ميل وهوى؟

يرى بعض النقاد أن هذا ضرورة لا فكاك منها، والتاريخ بدون تحزب — فى رأيهم — وهم من الاوهام. ولكن لحسن الحظ — أو لسوء الحظ — أن كل الناس — والمؤرخين بضرورة الحال جزء من هؤلاء الناس — لهم تعصباتهم وأفكارهم السابقة ومعتقداتهم ومذاهبهم، وهذا لا يدل بحال على فقدان الأمانة وضياع النزاهة، ومن الطبيعى أن نستدل بالماضى على وجهة نظرنا الخاصة بالحاضر، والمؤرخ الذى لا يكون متحرباً إلى حد ما يكون إنساناً لا آراء له ولا معتقدات ولا وجهة نظر ولا مقاييس خاصة يقيس بها الأمور ويقدرها. وكبار المؤرخين لم يسمموا من نزعاتهم الخاصة ووجهات نظرهم الفلسفية، لجيبون تبدو فى كتابه العظيم عن سقوط الدولة الرومانية نزعة القرن الثامن عشر الفلسفية وتنكرها للديانة المسيحية. وقد تأدى به ذلك — كما يرى بعض نقاده — إلى تشويه بعض الحقائق: من أمثلة ذلك روايته الساخرة عن القديس جورج حامى انجلترا؛ فقد أثبت البحث أنها لا أساس لها من الصحة.

وماكولى كان لذلك متحزباً مثل جيبون؛ فقد كان ينظر إلى التاريخ من

وجهة نظر الأحرار الانجليز ، ويحاول أن يستنبط من التاريخ الأدلة والشواهد على أصالة آرائهم وصدق نظراتهم . وهو لا يخفى الحقائق وانما يثير حولها ضجة مدوية ويلقى عليها ضوءاً خاطفاً، ويضيف إليها من عنده تعميمات عريضة لامعة ويضفى عليها ألواناً براقة أخاذة .

وقد كان كارلايل مؤرخاً فناناً من الطراز الأول ، وكان له فلسفة خاصة فى تمجيد الأبطال وإكبار شأنهم ، فبالغ فى تصوير فضائل كرومويل ، وجعل من فردريك الأكبر بطلا من أبطال الأمم ، وكتابه عن الثورة الفرنسية مزيج من الشعر الرائع والتاريخ .

فلا يجمل بنا إذن أن نقسو على تاسيتوس لعيب قد لحق أكثر المؤرخين ويكاد يكون شديد الاتصال بفن كتابة التاريخ . وقد وجه المفكر الفيلسوف كولنجوود نقداً شديداً إلى تاسيتوس ، ولكنه على شدته لا يخلو من الاصابة والسداد ، وذلك فى كتابه القيم « فكرة التاريخ » الذى طبع بعد وفاته . وقد ورد هذا النقد فى أثناء كتابته عن فن كتابة التاريخ عن الرومان، وهو يقول عن تاسيتوس ما يأتى : « تاسيتوس باعتباره أحد من شاركوا فى تزويد الأدب التاريخى علم من الأعلام الشامخة ، ولكن من المسموح به أن نتساءل هل هو مؤرخ على الاطلاق ؟ وهو يحاكى مؤرخى القرن الخامس اليونانيين فى نظرتهم الضيقة المحلية ولا يحاكيهم فى مزاياهم وفضائلهم . وهو مأخوذ بتاريخ الأحوال فى روما ، ويهمل أحوال الامبراطورية، أو لايراها إلا كما تنعكس فى مناظير الرومانى الملازم لبلده . ونظرته فى تلك الأحوال الرومانية البحتة نظرة ضيقة للغاية . وهو شديد التعصب لمعارضة مجلس الشيوخ . وهو يجمع بين احتقار الادارة السلمية والاعجاب بالغزو والفتح والمجد الحربى ، وهو اعجاب قد أعماه جهله الفاضح بحقائق الحرب . وكل هذه العيوب تجعله غير صالح لأن يكون مؤرخا لمهد الأباطرة الأوائل . ولكن هذه العيوب فى أعماقها ليست سوى علامات لعيب عام أشد خطورة وأكثر شمولا ؛ فالنقص الحقيقى فى تاسيتوس هو أنه لم يفكر قط فى المشكلات الأصيلة لمحاولتها ، وموقفه حيال أساس التاريخ الفلسفى موقف طيش ورعونة . وهو يتعلق بالرأى البراجماتيكى الشائع عن غرض التاريخ تعلق الكاتب المولع باصطناع البلاغة لا تعلق المفكر الجاد . وقد تأدى به هذا الموقف إلى تشويه التاريخ تشويها منظما ،

إذ عرضه على أنه فى جوهره تصادم الأخلاق والطبائع الخيّرة المبالغ فيها بالأخلاق والطبائع الشريرة المبالغ كذلك فى تصوير شرها . ولا يمكن كتابة التاريخ كتابة علمية إلا إذا استطاع المؤرخ أن يستعيد فى عقله ويمثل لنفسه تجربة القوم الذين يسرد أعمالهم . وتاسيتوس لم يحاول قط أن يعمل هذا ، فأشخاصه لا تُنظَر من الداخل بالعطف والفهم ، وإنما تنظر من الخارج كمجرد مشاهد للفضيلة أو الرذيلة . وقلما تقرأ وصفه لأجريكولا أو دوميتيان دون أن تذكر ضحك سقراط من صور جلوكون الخيالية للرجل الكامل الخير والرجل التام الشر . وقد أغدق المدح على تاسيتوس لقدرته على رسم الأخلاق ، ولكن المبادئ التى يتبعها فى التصوير مبادئ فاسدة فى جوهرها وهى تجعل تصويره للأشخاص وصمة للحق التاريخى . ولا شك فى أنه وجد فى فلسفتى عصره الرواقية والأبيقورية مايسوّغ موقفه ، وهما فلسفتا تردد وهزيمة ، يبدآن من فرض أن الرجل الصالح لا يستطيع أن يغزو العالم الشرير أو أن يسيطر عليه . ولذا كانتا تعلمانه كيف يحتفظ بطهارة نفسه من أرجاس الدنيا وشرها . وهذا التعارض الزائف بين أخلاق الفرد والبيئة الاجتماعية يسوغ فى معنى من المعانى طريقة تاسيتوس فى إظهار عمل بعض الشخصيات التاريخية كأنه صادر من أخلاقه الشخصية وحدها ، وعدم قبوله الطريقة التى قد تكون أعمال الانسان فيها مما تفرضه عليه ظروف البيئة إلى حد ما وتحتمه أخلاقه جزئياً ، ولا الطريقة التى قد تشكل فيها الأخلاق القوى التى قد ترغم البيئةُ الانسانَ على الخضوع لها . والأخلاق الفردية إذا نظر إليها منفصلة عن البيئة فهى محض تجريد لا شئ له وجود حقيقى . وما يعمله الانسان متوقف إلى حد محدود على نوع شخصيته ، ولا يستطيع أحد أن يقاوم قوى البيئة والانسان إما أن يغزو الدنيا وإما أن تغزوه الدنيا . »

وواضح أن رأى نابليون فى تاسيتوس ورأى كولنجوود يتلاقيان فى نقاط عدة . وقد يشككنا هذان الرأيان فى نزاهة تاسيتوس وصدقه ، ولكنهما لا يزحزحان من مكانته باعتباره مؤرخاً فناناً للحوادث والشخصيات التاريخية فذّاً قليل النظير فى تواريخ الآداب .

على أدهم